الفيضان وكثرت الاهوار اكثروا من تربية الجواميس والاعتناء بها حتى انهم على بعض سواحل الفرات حيث يكثر ويكبر الذباب "والبق" (البعوض المؤذي) يصطنعون "كللاً" اي ناموسيات مخصوصة لجواميسهم يسترونها بها ليلاً خوفاً على جلدها الرقيق . والذين قدم عهدهم بالزراعة كادوا يحضرون وتحضّر منهم كثيرون فيما مضى فتدرجوا من سكن الخيم الى "الصرايف" المبنية من سعف النخل وغيره ومنها الى بيوت الاجرّ والحجر ويا حبذا لو كثر عدد المتحضرين في البلاد المجاورة لهم الكانزة جواهر مدفونة فينقلب شرهم خيراً وينفعون وينتفعون

ويليق بنا ان نذكر في الختام انهُ منذ تولّى الحضرة الشاهانية عرش الخلافة العظمى صُرفت العناية الخاصة لاسعافهم وتهذيبهم فعمرت بذلك بلاد كثيرة على الفرات ودجلة والامل بالله كثير ان شاء الله

اثر الطبيعة في الشريعة

لجناب ابرهيم افندي ميخائيل جمال

المفهوم من الشرائع المدنية عند العموم انها حدود وضعها البشر ليعرف كل انسان بها حقوقهُ فيطلبها وواجباتهِ فيؤدّيها وان ارادة الشارع وحكمتهُ هما القاعدتان الاساسيتان لبنائها والمبدآن الاوليان في انشائها فالفروق والمباينات والاختلافات الكائنة في اصولها وفروعها عند امةٍ غير ما عند الاخرى انما هي للاختلافات والمباينات الكائنة في عقول وطباع واضعيها عند كلا الامتين والتبديلات والتغييرات الطارئة عليها في كل زمان ليست هي الا نتيجة السبب عينهِ اي موت قديمها مع قدم اهلها وحياة جديدها مع جديدهم وبالجملة فهي وضعية خاضعة لارادة الواضعين ظالمين كانوا فظالمة او عادلين فعادلة ثابتين على عوائدهم وتقاليد آبائهم واجدادهم فثابتة او متقلبين فمتقلبة * هي لسان حال الامة والى الامة وحدها يساق المدح والذم التخطئة او التصويب في شانها ولا مشاحة في ذلك اذ يرى لهُ من كل جهة ادلة عدة وبراهين جمة

والغالب ان يقف الانسان عند هذا الحد ولا يتجاوزهُ الى ابعد منهُ ولكن اذا تاملنا واقع الامر واستقصينا الاشياء الى اصولها وجدنا ان هناك اسباباً اخرى هي احرى ان تكون الاصل في وضع الشرائع والسبب في الاختلافات الناشئة فيها والتقلبات الطارئة عليها لانها تفعل في الانسان نفسهِ وتؤثر في طبائعهِ وتكيفهُ خلقاً وخلقاً نعني بها الاسباب

الطبيعية من اختلاف اقليم وحر وبرد وهواء وماء ونجد وغور وجبل وسهل وخصب وجدب الى غير ذلك * وربما انكر علينا القارئ الاول وملة هذا القول واستغرب كيف ان تلك الطبيعة الجامدة لها مثل هذا الاثر في الشرائع واحوالها ولكنه عند امعان النظر لا يسعه ان ينكر هذه الحقيقة الراهنة بل يقرُّ معنا بان الانسان اذا جاز ان يُسمَّى السبب القريب للشرائع جاز ان تسمَّى تلك الطبيعة الجامدة الفاعلة في الانسان نفسهِ الاسباب البعيدة لها . وبعبارة أُخرى ان الطبيعة السبب الاول والانسان السبب الثاني . وهذا القول لم نبتكرهُ ابتكارًا ولكنهُ نتيجة لما قرَّرهُ المتقدِّمون والمتأخرون من ان الانسان ابن الطبيعة واثرها ظاهرٌ فيهِ . وهذا ما نحاول بيانهُ فيما يأتي

فليس بخافٍ ان للطبيعة اثرًا خطيرًا في الامزجة والاخلاق . فالاقليم بهوائهِ ومائهِ ودرجة حرارتهِ ونوع تربتهِ لهُ في المزاج والخلق سلطان نافذ القوَّة مؤيَّد السطوة يتصرَّف فيهما تصرُّف الملك المطلق في ملكهِ والسلطان في رعيتهِ . وحقيقة هذا الامر وان لم تكن معروفةً الى الآن عند العموم الَّا ان العلم قد قرَّرها وجعلها من اهمِّ المبادىء العلمية وأثبتها . ولقد بحث العلماء والفلاسفة المتقدمون في هذه المسألة كثيرًا وكتبوا فيها شيئًا يعتبر اليوم من اجلِّ ما تركهُ الاوَّل للآخر . فابقراط ابي الطب المولود سنة ٤٦٠ قبل المسيح كتاب افردهُ في الاهوية والمياه والبلدان وبرهن فيهِ بادلة طبيعية ما لهذه الطبائع الثلاث من الاثر في خَلق البشر وخُلقهم ونموهم وضعفهم وارتقائهم وانحطاطهم وما لها من الفعل الفاعل في امزجتهم واطوارهم وهاك لمحات من قولهِ حيث يتكلَّم عن الاختلافات الكائنة في طباع البشر واحوالهم بالنظر الى اختلاف طبائع مواطنهم قال "ان اسيا تختلف اختلافًا عظيمًا عن اوربا بطبيعة محاصيلها وطبيعة سكانها فجميع ما في اسيا اجمل واكبر منهُ في اوربا واقليمها اجود وسكانها ارقُّ طباعًا واهدأ وسبب ذلك اعتدال فصولها". وقال ايضًا في الاقليم الواقع متوسطًا بين الحرِّ والبرد "فمثل هذا الاقليم ايامهُ اشبه بايام الربيع لاعتدال فصولهِ انما ليس لسكانهِ شجاعة الرجال ولا الصبر على المشقة ولا الثبات في الاعمال ولا علو الهمة وطنيًا كان اصلهم ام غريبًا ويغلب فيهم حبُّ الذات على كل شيء". وقال في محلٍّ آخر "واما ضعف العزم والجبن فاذا كان اهل اسيا اقلَّ نجدةً للحروب وارقَّ طبعًا كذلك من اهل اوربا فانما ذلك لقلة التغيرات الطارئة على فصولهم بالبرد والحرِّ فلا يكاد يحس بالفرق بينهما فلا جرم ان العقل لا يشعر باهتزازات ولا البدن باضطرابات شديدة مما يولِّد في الانسان الشراسة وعدم الانقياد والحدَّة بخلاف الاعتدال الدائم لان ما ينبِّه العقل ويخرجهُ من سكونهِ انما هو الانتقال فجأةً من حال الى حال" وفي آخر الكتاب يقول

بعد ان ذكر تأثير كل وطن في الصحة والمرض والشجاعة والجبن والذكاء والخمول والشراسة واللين والهمة والكسل وباقي الصفات والطباع " فهذه هي الاسباب التي تغيّر طبيعة الانسان اشد تغيير ثم تأتي التربة التي يؤخذ منها الغذاء والمياه التي تستعمل وبالجملة فانك ترى على الاطلاق انّ شكل البدن واستعدادات النفس موافقة لطبيعة المكان" واخيرًا يقول " فان كل ما تنبتهُ الارض مطابق لها . فهذه هي اشد الاحوال المتعلقة بالخلق والاخلاق وبالناس على ما ذكر يحكم على ما لم يُذكر بدون خوف الغلط "

وقد عرف ذلك ايضًا العلامة المدقق الشهير ابن خلدون المغربي والمع في مقدمتهِ المشهورة بصراحةٍ الى ما للاقاليم والمواء من الاثر في الوان البشر واخلاقهم والكثير من احوالهم ويطول بنا المقام لو اردنا ذكر ما ورد هناك بحروفهِ فليراجع في محلهِ . وابن خلدون يوافق ابقراط في ان لاعتدال الاقليم أثرًا عظيمًا في اعتدال اخلاق الناس وصحتهم وجودة عقولهم ولطف طباعهم والعكس بالعكس

وقد وجد غير هذين العالمين ممن ورد من القدماء هذا المنهل وغاص هذه اللجّة فالتقط منها لآلئ غوالي انما ما جاء بهِ هذان وخصوصًا ابقراط كان اوضح بيانًا واصرح انتهاجًا فلم تخل الصين ولا الهند ولا وادي النيل ولا بلاد اليونان ولا اصقاع فارس ولا بقعة فيزيقية القديمة من علماء يدل ما بقي من آثار مدوناتهم على انهم تفلسفوا في الامور فلسفة طبيعيةً حقيقيّة وقرروا الفواعل الطبيعية التي وجدوا لها اثرًا في كل منفعلٍ اما ما لم يدركوا له اسبابًا فقد نسبوا انفعالهُ الى فعل قوة فائقة الطبيعة وبعبارةٍ أخرى الهية . ولكنهم لم يفتهم معرفة انفعال البشر وعامة الحيوان من الفواعل الطبيعية ومعرفتهم هذه وان كانت لا تستحق ان تذكر بازاء معارف اهل هذا العصر لكنا اوردناها برهانًا على قدم عهدها

اما عند المتاخرين فان هذا البحث مشهور مطلوب وهو من مهمات العلوم الطبيعية ان لم نقل من ضروريّاتهم ولاكابر علمائهم فيهِ تآليف وتقارير ومذاهب ومباحث ومناظرات ومشاحنات اشهر من ان تذكر وهو يتقدم ويرتقي كلما تقدمت وارتقت العلوم الطبيعية والطبية لان العلم بهِ لازم لكل طبيب كما قال ابقراط . بل هو نقطة لا بدَّ لكل طائف حول العلوم الطبيعية من المرور بها

اما تعليل اثر الطبائع الجامدة في احوال البشر الحيّة بحسب المبادي العلمية الطبيعية فلا يسمح لنا المقام بالخوض في تفاصيلهِ بل حسبنا ذكر ملخصهِ وكفى بهِ مؤيّدًا لرأينا : فالقاعدة الاساسية التي نبني عليها رأينا هي ذاك الناموس الطبيعي والمبدأ العلمي الذي قررهُ علماء العصر

حديثًا بعد البحث الدقيق والاختبارات الجمة تعني بو تنازع البقاء وتغلب الانسب في هذا التنازع ويراد بذلك ان الاحياء المختلفة العائلية في الطبيعة هي في "جهاد دائم" وخصام متلازم بعضها مع بعض لاشتراكها باسباب الحياة كالاقليم والغذاء فما كان منها انسب لهذه الاحوال الطبيعية كان ولا ريب أقدر من سواهُ على الثبات في ميدان هذا التنازع وبالطبع لم يكن ذلك ليتأتى الاَّ عن وجود موافقة بينهُ وبين هذه العوامل الطبيعية وهذه الموافقة هي نفسها عين تكيُّفهِ بها . اي انهُ متى وافق الانسان هذه الاحوال الطبيعية التي تحيط بو موافقةً تتكفل ببقائو مصونًا من فواعلها كان بالطبع ذا ذاتية قابلة للتغير والتحول معها كيفما انقلبت ولولا ذلك لما وافقها . فالانسان كسائر الحيوان بقاؤهُ وارتقاؤهُ دليل تكيفهِ بالعوامل الطبيعية الفاعلة فيهِ . والاختلافات الكثيرة الكائنة بين افرادهِ دليل آخر على ذلك بكونها ناتجة عن اختلافات الاقاليم التي نشأ فيها وأثَّرت عواملها فيهِ فسواد الزنجيّ وبياض الصقلبي وصفرة المغولي لونًا وطيش ابن افريقية وضعف ابن الهند وتقلُّب ابن اسيا وحزم ابن اوربا اليوم خلقًا انما هو لاثر الطبيعة فيهم (ثم سواها من المؤثرات الاخرى) . وهذه الاحوال الطبيعية تتغير ايضًا في المكان الواحد بحسب تغير اقليمهِ لاسباب كثيرة لا محل لبسطها هنا فتتغير لذلك اخلاق اهلهِ وطبائعهم وهذا هو السبب في تغير احوال الامم في الاماكن الواحدة وانقلاب الممالك والدول كل منقلبٍ في العصور المتطاولة . ولزيادة الايضاح لا بدَّ لنا من ان نرد القارئ الى مطوَّلات هذا الفن من مثل التاريخ الطبيعي وغيرهِ من مباحث علماء الطبيعة وكفى بما ذكرناهُ بيانًا لغرضنا

فاذا تقرَّر لدينا كل هذا وعلمنا ما للطبيعة من الأثر في المزاج سهل علينا اذ ذاك بيان كون ذلك الاثر لاحقًا بالشريعة نفسها بدليل ان الشريعة خاضعة لاحكام الاخلاق بل هي صورتها ونتيجتها وثمرتها وهكذا نتسلسل معنا المسألة على هذه الصورة : الشريعة خاضعة لاحكام المزاج والخُلق والمزاج والخُلق خاضعان لاحكام الطبيعة فالشريعة خاضعة لاحكام الطبيعة والثانية أثر عظيم على الاولى . وبيانًا لذلك نورد المثال التالي : المعروف ان قارَّة اوربا ابرد من قارَّة اسيا وكلاهما ابرد من قارة افريقية وان البرد يؤثر في الطباع فيجعلها اشدَّ والحرّ يجعلها اضعف والاعتدال يجعلها بينَ بينَ ولذلك كانت شرائع اهل اوربا اكثر حريَّةً واستقلالاً وفقًا لطبائع اهلها كما هو مشهور فيها . وشرائع اهل افريقية اكثر استعبادًا واذلالاً كما هو معلوم عن مصر في القدم والحبشة وداخلية افريقية . وشرائع اهل اسيا بينَ بينَ كالا حاجة للدلالة عليهِ . هذا بوجه العموم واما بوجه الخصوص فان في اوربا مثلاً بلادًا ابرد من بلاد أخرى كبلاد الروس والانكليز بالنسبة الى بلاد الايطاليان والالمان ولذلك ترى ان طباع اهالي البلاد الاولى وشرائعهم تختلف عن طباع

اهالي البلاد الثانية وشرائعهم ذلك بقطع النظر عن عوامل أُخرى غير المناخ طبيعية وغير طبيعية فاعلة في الطبائع من مثل حالة المعيشة ومكانة البلاد من العلم والتمدُّن مما لا محل لاستيفائه هنا . ولنستطلع ايضاً شرائع البدو فنراها في الغالب اشد صرامةً وقسوةً من شرائع الحَضَر وذلك لان طباع البدو حساسة خشنة بالنظر الى خشونة اجسامهم وقشافة احوال معيشتهم من مأكل ومشرب وملبس ومأوى مما يؤثر في الطباع اثر الترف والحدَّة والشجاعة والاقدام . فاذا تدرجنا الى من كانوا ارقى منهم في الحضارة واسسى في التمدُّن رأينا الطباع تلطف وترق والشرائع تتدرج معها في الرأفة وحسن المعاملة والحرية وغيرها كانها ظلٌّ للطباع تتبعها كيفما كان سيرها . فمعاملة المرأة شرعًا عند كل أمَّةٍ من الامم التي تجعلها عبدة او خادمة للرجل كما عند الفَحَج والمتوحشين الى الامم التي تجعلها مساوية للرجل كما عند المتمدنين يبرهن لنا ذلك . وبالاجمال فانا اذا التفتنا الى كل جيل من الناس على حدة نراهُ قد قام شاهدًا لنا على صحة هذا الرأي . والذي يقال في الشرائع يقال في العوائد والشعائر ايضاً لان الاولى صورة الاخرى ونتيجتها

هذا ولا ننكر ان بعض المشاهدات الواقعية يخالف رأينا ولكنا عند امعان النظر نجد ان هناك فواعل أُخرى غير طبيعية تؤثر على فواعل الطبيعة او عارضتها فلم تظهر منه كما يجب . من ذلك ما لو تغلَّبت مملكة على مملكة أُخرى فادخلت فيها شرائعها وقوانينها والغت الشريعة الوطنية الاهلية او انقرضت دولة وادال الله لغيرها كما نرى في مصر ايام كانت تحت حكم الفراعنة وكيف صارت يوم آل امرها للبرنان فالرومان فالمسلمين

وحاصل ما تقدَّم ان الشريعة خاضعة على الاطلاق لاحكام الزمان والمكان والانسان وان العدل في الشريعة هو ما وافق هذه الاحكام على اختلافها كيفما وُجدت وأينما وُجدت ولهذا لا يكون العدل بسيطًا بمعنى انهُ واحد غير قابل التغيير والتبديل بل هو نسبي اي انهُ متعدد مختلف قابل للتحويل والتعديل بالنسبة لتلك الاحكام الطبيعية المتسلطة عليهِ فربما كان بعض ما هو عدل في سالف الازمان ظلمًا في الايام الحاضرة وكان ما هو عدل في البلاد الواحدة ظلمًا في البلاد الاخرى . فكون هذا الشيء عدلاً او ظلمًا انما هو بالنسبة للزمان والمكان اللذين هو فيهما لا بالنسبة اليهِ في ذاتهِ

يستنتج من كل ذلك عدم وجوب التمسك الشديد بنصوص القوانين واغفال العدل الطبيعي اي عدل الذمة الذي ربما خالف في بعض الاحوال العدل التدويني اي عدل القانون بل اعتبار القوانين قابلة للتحسين والتحوير والتبديل والتغيير وان الظروف التي وُضعت فيها تلك القوانين قد تغيَّرت ويجب ان تتغيَّر القوانين معها وذلك قد عرفتهُ معظم الممالك الراقية

معارج المدنية فاقامت لجانًا تنظر في اصلاح شرائعها وتنقيحها ولم تُقيد حرية افكار القضاة فيما اذا رأوا امرًا عدليًا يخالف القانون بان يحكموا به حتى انها صرّحت لهم بذلك في مواد القانون نفسها كما هو جارٍ في هيئة قضاء هذا القطر السعيد ايدّه الله سريرحاكمو بمنّه وطوله

مستنبط حروف الهجاء

أدرجنا وجه ١٩٨ في الجزء الماضي مقالة عنوانها الكتابة نقلاً عن كتاب القصاري لسيادة العلّامة المفضال اقليميس يوسف داود مطران دمشق على السريان ذهب فيها الى ان مستنبطي حروف الهجاء هم "الكلدانيّون الذين هم السريان الشرقيّون" وانهم هم الذين علّموها لليونانيين خلافًا لما هو مشهور من ان الفينيقيين استنبطوها وعلّموها لليونانيين. وقد اتى سيادته على صحة ما ذهب اليه بادلّة عقليّة ولغويّة ذُكرت في المقالة المشار اليها وقد نظرنا فيها طويلاً فلم نجدها أقوى بل اضعف من الادلّة التي تقام على صحة القول المشهور الذي اخترناهُ منذ ثماني سنوات كما ذكرنا وجه ٣٥٢ في الجزء الماضي من المقتطف ولذلك وعدنا ببسط الكلام على ادلّة الفريقين ليرى القارئ الفرق في قوتها ويختار ارجحها . ولا حاجة للافصاح بما في الضمير من ان غرضنا الوحيد من هذه المقالة هو الفائدة العلمية المحضة اذ قد ان الاحوال كلها تدلُّ عليهِ

(١) ان مستنبط الحروف الهجائية مجهول ولذلك ذهب الناس في اصلهِ وبلدهِ مذاهب شتى ذكرناها قديمًا واعدنا ما في الجزء الماضي فلا حاجة الى اعادتها هنا والمتفق عليهِ عند الكتاب اليوم هو ان اقدم الحروف الهجائية المعروفة في المكتبة بالخط الفينيقي والمختار عند الكثيرين منهم ان هذه الحروف الفينيقيّة لم تُستنبط بدءًا من ذهن مخترعها بل انها بقايا كتابة صوريّة تحوّلت من صُور الاشياء شيئًا فشيئًا حتى صارت على ما هي عليهِ بتوالي الايام او ان الفينيقيين تناولوا الصوَر او بقايا الصور المصطلح عليها عند غيرهم واستخرجوا حروفهم الهجائية منها. والظاهر ان الناس كانوا ينسبون استنباط حروف الهجاء الى الفينيقيين منذ زمان قديم جدًّا كما يستدل من اقوال كثيرين من كتبتهم . وهذا هو ايضًا المختار عند اكثر المحققين من المحدثين

فمن الكتبة المتقدمين سانكنياثو[1] او سخنياثون البيروتي صاحب كتاب اسمهُ الفينيكيكا

(١) سانكنياثو بلفظ كتبهِ من المحدثين وسخنياثون بلفظ المتقدمين رجل فينيقي وُلد في بيروت وقيل في صيدا او في صور. ورُوي عنهُ انهُ الف كتابًا في تاريخ فينيقية واعتقاداتها واعتقادات المصريين سماهُ فينيكيكا وقد